الثقافة الإسلامية

(٢٨)

على طريق ذات الشوكة

الإصدار الثاني

مع إضافات وتصحيح وتنقيح

محمّد مهدي الآصفي

مختارات من محاضرات ومقالات
ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي
- ٢٨ -

*   *   *

اسم الكتاب: .... على طريق ذات الشوكة

المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الخامسة: .... ١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠م

الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة

المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت ^ النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

{ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ }

الأنفال: ٧

على طريق ذات الشوكة

{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَـوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِـقَّ الحَـقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ}.

{لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَـفَرًا قَاصِـدًا لاَّتَّبَعُـوكَ وَلَكِـن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَـا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}(١).

لقد طال الطريق، وطالت المحنة بالعاملين للإسلام، خلال العقود الأخيرة، وطال إبتلاء أبناء الإسلام هنا وهناك.

وفي خضم هذه المحنة أُحب أن أتحدث عن المحن والابتلاءات الطويلة، في تاريخ الحركات الإسلامية، والعاملين في سبيل الله، وعن الطرق والمسافات الطويلة والشاسعة التي يمتحن الله تعالى بها عباده في حركتهم إليه

---

(١) التوبة: ٤٢.

على طريق ذات الشوكة.

فالإسلاميون لا يتعرضون لأول مرة لمحنة طويلة وصعبة، وللحركة على طريق طويل وشاق، وإنّما تقع حركتهم في سياق حركات صعبة شاقة كثيرة من قبل، من النبيين والصالحين، والصديقين، امتحنهم الله تعالى بمثل هذا الابتلاء العسير، وطالت بهم المحنة، وطال بهم الطريق. والقرآن الكريم يحدثنا عن هذه المسافات الشاسعة والطرق الطويلة والشاقة في حياة العاملين كثيراً.

إذن لكي تطمئن أقدامنا، وتثبت على الطريق العسير، لابد أن نعود إلى كتاب الله لنتساءل عن طبيعة هذه المسافات وعن أعراضها وآثارها ونتائجها في حياة العاملين.

ولدينا على التحديد خمسة أسئلة:

١ـ ما هي المسافات الطويلة الشاقة في حياة العاملين؟

٢ـ ما هي أعراض هذه المسافات؟

٣ـ ما هي مكاسب وآثار هذه المسافات في حياتهم؟

٤ـ ما هي عاقبة المسافات الشاسعة والشاقة في حياة

المؤمنين؟

٥ـ ما هي الوسائل التي تمكننا من الحركة على المسافات الطويلة على طريق ذات الشوكة؟

وفيما يلي نحاول أن نجيب على هذه الأسئلة:

١ـ ما هي المسافات الطويلة؟

في كتاب الله نجد آيتين تخصّان المسافات الطويلة والشاقة في حياة العاملين، إحداهما في سورة التوبة والأُخرى في سورة الأنفال.

أ ـ آية سورة التوبة:

{لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}.

وهذه الآية الكريمة تقرر حقيقتين هامتين في حياة الناس:

الحقيقة الأولى: أنّ روّاد المسافات القصيرة كثيرون **{لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ}.**

والعرض القريب: هو المتاع القريب الذي يناله الإنسان من أيسر الطرق، وبأيسر الوسائل، والسفر القاصد: السفر المعتدل المريح الذي لا يكلّف أصحابه جهداً كثيرا.

والحقيقة الثانية: إن الناس عندما يطول بهم الطريق وتبعد

عليهم الشقة فسيتخلفون ويعتذرون. والشقّة: الطريق الطويل الشاق.

وقليل من الناس أولئك الذين يصبرون على السير على الطرق الوعرة والصعبة والشاقة. أمّا الطرق والمسافات القصيرة فروّادها كثيرون.

ولذلك يكثر من الناس الإقبال على (الدنيا)، ويقل دائماً المقبلون على الآخرة، لأن الناس ينالون متاع الدنيا من أيسر الطرق وبأيسر الوسائل، نيلا سريعا. أمّا متاع الآخرة فلا يناله الناس إلاّ بعد جهد ومشقه وعناء **{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}**(١).

ونحن في مواجهة الظالمين نجد أمامنا خيارين، احدهما يسير وسهل ومريح، والآخر عسير وصعب وشاق.

---

(١) البقرة: ٢١٤.

أمّا اليسير منهما فهو مصانعة الظالمين، والوصول معهم إلى حدود مقبولة من التفاهم، والاعتراف بوجودهم ليعترفوا لنا ببعض حقوقنا، وهذا هو الطريق اليسير، الذي لا يكلف المؤمنين في أنفسهم وأهليهم وأموالهم كثيراً.

وأمّا العسير منهما فهو المواجهة والمقابلة وما تتطلبّه من الصبر على الأذى والعذاب في سبيل الله، وما تؤدي إليه أحياناً من انتكاسات صعبة ومرة. وتنطوي هذه الطريقة على رفض الاعتراف بالكيان السياسي للعدو، ورفض التفاهم معه، إلاّ أن يسلم لرب العالمين.

وهذه المواجهة إذا كانت معقولة وقائمة على أُسس موضوعية صحيحة تنتهي إلى النصر، وان كانت تكلف أصحابها الكثير من أنفسهم وأموالهم وأهليهم.

ب ـ آية سورة الأنفال:

{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ

وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}(١).

وهذه الآية المباركة نزلت في المسلمين في معركة بدر، وكان أصحاب رسول الله 2 يتمنون عندما خرجوا من المدينة أن ينالوا الغنيمة من أيسر الطرق وبأيسر الوسائل، ودون أن تنالهم بأساء أو ضراء. وقد وعدهم الله تعالى إحدى الطائفتين أنّها لهم، إمّا الغنيمة الباردة والعرض قريب. أو النصر على طريق ذات الشوكة، في البأساء والضراء.

وقد كان المسلمون يؤثرون الغنيمة الباردة من تجارة قريش ومتاع الشام الذي كان يحمله معه أبو سفيان من الشام إلى مكة، على الحرب الضارية والشرسة التي واجهها المسلمون في بدر بين مكة والمدينة، وهم يبحثون عن قافلة قريش التجارية والمحملة بمتاع الشام الذي كان يتمناه المسلمون يومذاك.

{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّآئِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ

(١) الأنفال: ٧ـ ٨.

غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ}.

و(ذات الشوكة) هي الطرق الشائكة والصعبة التي يمتحن الله تعالى بها عباده في حركتهم إليه.

وإذا ضممنا آية التوبة إلى آية الأنفال نجد أنّ متطلبات الطرق والمسافات البعيدة والشائكة من العاملين هي الصبر والثبات والمقاومة، أوّلا والوعي والحذر ثانياً.

وقبل هذا وذاك لابدّ من الثقة بالله تعالى والاتكال على الله، والاستعانة بحول الله سبحانه وقوته، ومن دون ذلك لا يستطيع الإنسان مهما كان صبره ووعيه أن يواصل الحركة على هذه الطرق، وهو معنى (الصلاة).

وهذه ثلاث شروط من متطلبات المسافات والطرق الشاقّة ذات الشوكة

وسوف نتحدث إن شاء الله تعالى عنها أكثر خلال هذا الحديث.

والآن ننتقل إلى الإجابة عن السؤال الثاني من الأسئلة التي استعرضناها قبل قليل على ضوء كتاب الله.

٢ـ ما هي أعراض المسافات الطويلة؟

إن من أهم أعراض المسافات الطويلة التعب واليأس. وهما من أقوى عوامل التثبيط والتساقط والتخاذل، ولذلك يقلّ دائماً روّاد المسافات الطويلة، ويكثر المترددون والسائرون على المسافات القصيرة، ويكثر المتساقطون على المسافات الطويلة والشاسعة.

فإذا دُعي الناس إلى طريق طويل هبّ للتحرك طائفة منهم، فإذا ضربوا في السير بدأ هذا الجمع بالتناقص، وكلما أمعنوا في السير كثر المتساقطون منهم. وهذه سُنَّة ثابتة في المسافات الطويلة والمحن التي تطول بالناس.

وسبب هذا التساقط والتردد والتخلف هو (التعب) و(اليأس). فقد يتعب العاملون عن مواصلة السير شأن كل من يبلغ به التعب حداً يعجزه عن التحرك.

وقد ييأس العاملون عن مواصلة الطريق إذا نظروا إلى طول الطريق وحجم العدو، وضخامة إمكاناته، وكثرة عدده وماله، ونظروا إلى قلة عددهم وشدة الفتن بهم، وتظاهر

الزمان عليهم.

وإنّ التعب واليأس يؤديان إلى التخلف والتساقط كما ذكرنا. وهما يؤديان إلى تبرير حالتي التخلّف والتساقط، والتبرير يجر إلى التثبيط.

فإن الإنسان إذا برّر تخلفه، أحبّ أن يكثر عدد المتخلفين والمتساقطين من مثله، فيحاول أن يثبط الناس عن المواجهة والقتال.

وهذا الأخير يفصله عن جبهة الحق ويضعه في الجبهة المقابلة لها.

وهنا يتولد (النفاق) ويأخذ النفاق شكله ونسيجه السياسي الخاص به.

العجب والرياء:

وأخطر ما في هذه النقاط أنها تختفي عن صاحبها وعن الآخرين اختفاءً كاملا في ساعات اليسر والرفاه، وتبرز مرة واحدة عند الشدة والابتلاء. وقد تكون نقاط الضعف هذه

معروفة لصاحبها، ولكنه يعمل لإِخفائها عن أعين الآخرين ويتظاهر بما لا يملكه من صفات القوة والعطاء والإخلاص. وهذا هو (الرياء).

وقد تختفي هذه الصفات عن صاحبها وهو اخطر ما في هذا الأمر فلا يعرف عن نفسه شيئاً حتى في لحظات الشدة والابتلاء.

والعامل الذي يُخفي هذه الصفات عن صاحبها ويخفي الإنسان عن نفسه هو (العجب). فيتصور الإنسان لنفسه ما ليس عنده من نقاط القوة والكمال، ويُعجب بما لديه من العمل والعطاء.

وبالعجب يُخدع الإنسان عن نفسه وبالرياء يُخدع الإنسان الآخرين عن نفسه، وهما اخطر العوامل في سلوك الإنسان.

المراحل الأربعة للسقوط:

وتتطور هذه الأعراض في حياة الناس حتى تؤدّي به إلى السقوط الكامل ضمن أربع مراحل:

في **المرحلــة الأُولــى**: تبـرز علـى سـلوك الإنسـان فـي لحظات الشدة والابتلاء ثلاث صفات هي:

١ــ الخوف والجبن.

٢ــ البخل والشح.

٣ــ اليأس.

وهذه الصفات الثلاثة إذا تمكنت من الإنسان في سـاحات المواجهة عطّلت كل إمكاناته وقدراته تماماً، واستنفدت كـل جهده ومقاومته. وهذه هي المرحلة الأُولى.

وفي **المرحلــة الثانيــة**: يبـدأ الإنسـان بـالتخلّف والتغيّـب والتهرّب عن ساحة العمل والمسؤولية فيغيب ويعتزل الساحة، ويطلـب العافيـة فـي حياتـه، ويـؤثر السـلامة علـى المخـاطرة والمجازفة.

وفي **المرحلة الثالثة**: يبدأ الإنسـان بتوجيـه غيابـه وتخلفـه عن الساحة وتبرير هذا الغياب ويشكك فـي شـرعية الحضـور والعمـل. والـدوافع الخلفيـة لهـذا الموقـف هـو الـدفاع عـن

التخلف والغياب، وتسقيط في قيمة الحضور والتكذيب لدعوة الأنبياء. يقول تعالى:

{ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ}(١).

وفي **المرحلة الرابعة**: يتحول الإنسان من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم، فلا يقتصر أمره في الدفاع عن الموقف السلبي تجاه المسؤولية، وإنّما يتحول إلى موقف هجومي في تعويق الناس، وتثبيطهم عن التحرك والمواجهة وخوض الصراع، وصدهم عن سبيل الله، وهنا يتحول الإنسان إلى الصف المقابل لصف الأنبياء والدعاة إلى الله، ويتحول عمله إلى نقض عمل الأنبياء، وهو أقصى درجات السقوط.

المُعَوِّقون:

والتعويق والتثبيط نهاية السقوط في حياة الإنسان، وفي

---

(١) الروم: ١٠.

هذه المرحلة من السقوط ينقلب الإنسان من صف المؤمنين إلى صف المكذبين للأنبياء والناقضين لدعوتهم والصادين عن سبيل الله. فلا يكتفي الإنسان بالغياب عن المواجهة، ولا يكتفي بتبرير هذا الغياب والتشكيك في دعوة الأنبياء وتكذيبهم، وإنما يتجاوز ذلك كله إلى نقض دعوة الأنبياء والصد عن سبيل الله، ودعوة الناس إلى مشاقّة الأنبياء ومخالفتهم، وهؤلاء هم (المعوِّقون).

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة الأحزاب التي تقدم لنا صورة دقيقة عن المعوِّقين. يقول تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا**

اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاّ غُرُورًا * وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ
يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ
يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاّ
فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ
لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاّ يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ
مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً * قُل
لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لا
تُمَتَّعُونَ إِلاّ قَلِيلاً * قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ
أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن
دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ
وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاّ قَلِيلاً
* أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ
تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ
الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ
لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

يَسِيرًا }(١).

وهـذه الآيـات المباركـات ترسـم لنـا صـورة دقيقـة عـن المعوقين والظروف التي استدرجتهم إلى هذه العاقبة.

فتبـدأ الآيـات ببيـان نعـم الله تعـالى العظيمـة، والتنبيـه إلـى رحمة الله تعالى بالمؤمنين، وتأييده لهم في أحرج الساعات.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَـانَ اللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا }.

ثـم تشـير الآيـة الكريمـة ـ فـي المقطـع الـذي يليهـا ـ إلـى ساعات العسرة والشدة، حيـث تزيـغ الأبصـار، وتبلـغ القلـوب الحناجر، ويظن الناس بالله الظنـون، ويتعـرض المؤمنـون فيهـا لزلزال شديد.

{إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِـنكُمْ وَإِذْ زَاغَـتْ

---

(١) الأحزاب: ٩ـ ١٩.

الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا }.

في هذه الساعات العسيرة وفي مثل هذه الابتلاءات الصعبة ينشطر الناس إلى شطرين متمايزين: الصادقين والكاذبين.

والصادقون هم المؤمنون، والكاذبون هم المنافقون.

ولقد كان الكاذبون كاذبين من قبل، ولكنهم كانوا يخفون كذبهم عن الآخرين، ولربما كان كذبهم يختفي عن أنفسهم، فلا يعرفون عن أنفسهم أنهم كاذبون فتكشفهم الابتلاءات العسيرة لأنفسهم وللآخرين وتفرزهم وتميزهم عن الآخرين... وها هنا مولد النفاق والموضع الذي يبرز فيه النفاق.

فيبرز النفاق فجأة **{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاّ غُرُورًا }.**

ولقد كان هذا المرض في نفوسهم من قبل، لكنه كان خافياً عنهم وعن الآخرين، فلما حلّت بهم الفتن برز هذا

المرض بصورة قوية ومفاجئة.

ثم ترسم الآيات المباركة صورتين من (النفاق).

الغياب والتهرب عن ساحة المواجهة.

والتعويق والتثبيط.

أمّا عن التهرّب عن المواجهة والاعتذار فيقول تعالى:

{وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا}.

أمّا عن التعويق والتثبيط والصدّ عن سبيل الله فيقول تعالى:

{وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا}.

وتشرح الآيات الكريمة بعد ذلك درجة سقوط هذه الفئة ودرجة انهيارهم في الفتنة واستسلامهم لها وهي أقصى درجات الانهيار والاستسلام: **{وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا}.**

وتذكّرهم الآيات المباركة بعد ذلك بعهد الله الذي

عاهـدوا الله عليـه والتزمـوا بـه، وقطعـوه علـى أنفسـهم... وتـذكرهم بـان الله تعـالى سـوف يسـألهم لا محالـة عـن هـذا العهد الـذي قطعـوه علـى أنفسـهم، ويـوقفهم موقـف السـؤال العسير يوم يوقف عباده للسؤال عن العهد.

{وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْـلُ لا يُوَلُّـونَ الأَدْبَـارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً}.

ولا ينفعهم الفرار والهروب من القتـل. وأنّـى يفـر الإنسـان من قبضة سلطان الله تعالى وقضائه وحكمه.

{قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّـنَ الْمَـوْتِ أَوِ الْقَتْـلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلاّ قَلِيلاً * قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَـةً وَلا يَجِـدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا}.

ثم ترسم لنـا الآيـات هـذه الصـورة العجيبـة والرهيبـة عـن المعوقين الذين تناولت الآيات الكريمة أطرافاً مـن سـلوكهم، وتناقضـهم مع أنفسـهم، وغيـابهم، وتهـرّبهم عـن المسـؤولية،

وصدهم عن سبيل الله، فلنتأمل هذه الصورة العجيبة التي ترسمها هذه الآيات المباركات.

{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ: هَلُمَّ إِلَيْنَا، وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاّ قَلِيلاً * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ}.

وإنّها أوصاف عجيبة يحملها هؤلاء: لا يأتون البأس إلاّ قليلا، أشحّة عليكم، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك، تدور أعينهم، كالذي يغشى عليه من الموت، أشحّة على الخير. هذه أوصافهم في ساعة العسرة.

أمّا في ساعات اليسر حيث يذهب الخوف:

{فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ}.

وتشير الآية إلى الدور السلبي الذي يقوم به هؤلاء في

الصدّ عن سبيل الله بعد الفرار والهزيمة والغياب **{قَـدْ يَعْلَـمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}**.

ومن عجب أن هذه الأوصاف كانت موجودة في نفوسهم مـن قبـل، إلاّ أنّهـا كانـت كامنـة. فـإذا جـاء الخـوف بـرزت وظهرت، **{فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ}**.

وفي نهاية هذه الصـورة العجيبـة يحكـم الله تعـالى حكمـه الذي لا راد له بحق هـؤلاء **{أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّـهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}**. وتعبير القـرآن فـيهم دقيق **{لَمْ يُؤْمِنُوا}** من أول الأمر، لأنهـم آمنـوا فكفـروا بعـد ذلك.

هـذه الحالـة مـن التعويـق والتثبـيط واحـدة مـن إفـرازات سـاعات العسـر والشـدة ولـولا سـاعات الشـدة، وطريـق ذات الشـوكة لـم ينفـرز هـؤلاء عـن صـفوف المـؤمنين، ولأثْقَلـوا صفوف المؤمنين بما فيهم مـن ضـعف وعجـز وجـبن وشُـح، وأتعبوهم وأبطأوا حركتهم.

٣ـ ما هي آثار وخصائص السير على المسافات الطويلة؟

المسـافات الطويلـة تكشـف نقـاط الضـعف فـي نفـوس العاملين. فلا يستطيع الإنسان أن يكتشـف نقـاط الضـعف فـي نفسه قبل الابتلاء والحركة. فإذا دخل ساحة الابتلاء والحركة عرف نقاط الضعف وشخّصها وعرف كيف يتعامـل مـع هـذه النقاط، وكيف يسدّها ويعالجها.

وهــذا الاكتشــاف لا يــتم إلاّ عبــر المحنــة والمعانــاة والابتلاءات وفي المسافات الطويلة والحركات ذات الشوكة.

هناك يستطيع الإنسان أن يعرف نفسه جيداً، ويعرف نقـاط الضعف ونقاط القـوة فـي نفسـه، ويـتمكن مـن تسـديد نقـاط الضعف في نفسه.

إن الإنسـان قبـل أن يقـدم علـى تسـلق الجبـال الصـعبة لا يعـرف شـيئاً كثيـراً عـن نقـاط العجـز والضـعف فـي جسـمه وأجهزته الباطنية، فيتصور أنّه قادر على هذا التسـلق، فـإذا بـدأ حركة التسلق وباشر ذلك ظهرت لـه بالتـدريج نقـاط الضـعف

والعجز في جسمه وعضلاته وعظامه وقلبه ورئته وعرف من جسمه وجوارحه وأجهزته الباطنية ما لم يكن يعرف من قبل.

ولذلك فإن من المفيد أن يدخل الإنسان دورة اختبارية قبل أن يبدأ بمثل هذه الحركات والأعمال الصعبة مهما كان نوع هذه الحركات والأعمال، من قبيل التسلق، أم من قبيل المواجهة العسكرية الميدانية، أم من قبيل المواجهة السياسية والحضارية والعقائدية.

ولعل من ذلك فترات الابتلاء الصعبة في تاريخ الأنبياء التي تسبق الصراع العقائدي والحضاري الحاسم بين الأنبياء عليهم السلام وأقوامهم. يقول تعالى:

{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء} (١).

وليس من شك أن البأساء والضراء الذين يأخذ بهما الله

---

(١) الأعراف: ٩٤.

تعـالى الأنبيـاء ^ ومـن يقـوم معهـم مـن المـؤمنين يعـدهم لخوض الصراع الحاسم بين التوحيد والشـرك، ويرفـع درجـة كفاءتهم في الصمود في هذا الصراع العنيف والضاري.

وهذه إحدى النتيجتين، وهي نتيجة تخص الكيان النفسـي للفرد.

والنتيجة الأُخرى للحركات ذات الشـوكة تخـص الكيـان الجمعـي للأُمّـة الناهضـة بحركـة التوحيـد. فـإن المسـؤوليات الصعبة لرسالة التوحيد تتطلب من الأُمّة الناهضة بهذه الحركة أن تكون ذات كفاءة عالية في المقاومة والصمود. وان وجود العناصـر الضـعيفة فـي جسـم الأُمّـة يقيّـدها ويبطـئ حركتهـا، ويسلبها المقاومة في مواجهة التحديات.

ولا شيء أضـر علـى الأُمّـة الناهضـة بحركـة التوحيـد فـي ظروف الصراع الضاري من الترهّـل. ولا شـيء أكثـر ضـرورة في تكوين الأُمّة النفسي في هـذه المرحلـة مـن صـلابة النـواة الأُولى التي تحمل مسؤولية رسالة التوحيد.

ومثل هـذه الابـتلاءات تمـنح النـواة الأُولـى للـدعوة هـذه

الصلابة والمتانة والاستحكام الذي تحتاجه الدعوة في المراحل الأُولى من صراعها مع أئمة الشرك والكفر.

ولا يقتصر الأثر السلبي للعناصر الضعيفة في جسم الدعوة في ضعفها وبطئها فقط، فإن هذه العناصر بالإضافة إلى بطئها وركودها تعوق حركة الآخرين وسيرهم.

وحالات اليسر والرفاه تخفي عادة العناصر الضعيفة التي تُعَوِّق حركة الدعوة، وحالات الشدة والعسر تفرز هذه العناصر، وتميزها عن العناصر القوية والكفوءة القادرة على مواجهة التحديات وتجاوزها.

إن طريق ذات الشوكة يشطر الناس شطرين: الصادقين والكاذبين وفي حالات اليسر والرفاه يختفي الكاذبون في صفوف الصادقين، فلا يمكن التمييز بينهما إلاّ بمشقة وصعوبة. والتجمّع الذي يجمع هذا الخليط من الصدق والكذب تجمّع قليل الكفاءة في مواجهة التحديات إن لم نقل أنه عديم الكفاءة. ولقد كان لصلابة النواة الأُولى للدعوة في حياة رسول الله 2 دور كبير في كفاءة الثلة الأُولى من

أصحاب رسول الله 2 في مواجهة تحديات قريش واليهود وحلفائهما، ولولا صلابة وقوة هذه الثلة الصالحة من أصحاب رسول الله 2 لما استطاعت الدعوة يومئذ أن تجتاز كل تلك الأعاصير التي أثارتها قريش واليهود وحلفاؤهما ضد رسول الله 2 في الجزيرة. ولولا الأيام الصعبة التي تمرست فيها هذه العصبة من أصحاب رسول الله 2 في مكة والمدينة في بداية الهجرة لما تكونت هذه النواة، ولم تتكامل فيما بعد، فتكونت منها شجرة باسقة طيبة، يمتد ظلالها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

التمحيص على الخط العمودي والأفقي:

وللتمحيص في الابتلاء دوران ومهمتان في حياة الأُمّة.

المهمة الأُولى هي التمحيص على الخط العمودي في نفوس الدعاة إلى الله والعاملين في سبيل الله.

و**المهمة الثانية** هي التمحيص أيضاً، ولكن على الخط الأُفقي في كيان الأُمّة هذه المرة.

وإذا كان التمحيص الأول يشذب الفرد مما كان عليه من نقاط الضعف ويخلّصها من هذه النقاط، فان التمحيص الثاني يشذب الأُمّة ممن ينضم إليها من العناصر الضعيفة.

ولنقرأ مرة أُخرى دورة (التمحيص) في حياة الأمّة في آيات من سورة آل عمران، على الخطين العمودي والأُفقي. هذه الآيات تحدد بصورة دقيقة دور التمحيص في حياة الأفراد وفي حياة الأُمّة، على الخط العمودي وعلى الخط الأُفقي كما شرحنا ذلك من قبل. يقول تعالى:

{إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ}(١).

وفي هذه الآيات تمحيصان:

---

(١) آل عمران: ١٤٠ـ١٤١.

التمحيص الأول هو قوله تعالى: {**وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ**} وهذا هو التمحيص الذي يجري على الخط العمودي داخل النفس.

والتمحيص الثاني هو قوله تعالى: {**وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء**} والله تعالى يعلم الذين آمنوا منا، ولكن الله تعالى يريد أن يفرز الذين آمنوا حق الإيمان من الذين لم يؤمنوا كذلك في مثل هذه المعاناة والمحنة، ويخلّص الذين آمنوا حق الإيمان من الذين لم يؤمنوا كذلك.

ومن عجب أن الله تعالى لا يتخذ من الذين آمنوا منا شهداء حتى يعلم الله الذين آمنوا منا، وحتى يصفى تجمّع المؤمنين منا من الذين لم يؤمنوا حق الإيمان...

عندئذ فقط يتخذ الله تعالى من المؤمنين شهداء.

٤ـ عاقبة المحنة على طريق ذات الشوكة

كـان المسـلمون يتمنـون عنـدما خرجـوا لأوّل مـرة مـن المدينة في معركة بدر أن يلتقوا قافلة قريش المحمّلة بتجارة الشام وأن يرجعوا إلى بيوتهم وذويهم محمّلين ببضائع الشام، وكانوا يكرهون أن تفوتهم هذه القافلة ليلقوا بدلا عنها جيشاً مدججاً بالسلاح من قريش، جاء ليدافع عن تجارة قريش وكرامتها وعزتها.

وكانوا يؤثرون الغنيمة الباردة التي يصيبونها من تجارة قريش على النصر الذي يظفرون به عن طريق ذات الشوكة في الحرب.

وكان الله تعالى قد وعدهم على لسان رسوله إحدى الطائفتين، إما الغنيمة الباردة أو النصر على طريق ذات الشوكة.

ولم يكن أحب إليهم يومئذ من أن يختار الله تعالى لهم الأُولى على الثانية.

إلاّ إنَّ الله تعالى كان يريد لهم الثانية دون الأُولى. وهذا

هو الفارق بين ما يريد الإنسان لنفسه وبين ما يريـده الله تعـالى لعباده.

إن الإنسان يطلب لنفسه اليسير العاجـل، والسـهل المـريح، والله تعالى يريد أن يجعل من الإنسـان خليفـة لـه وأداة لتنفيـذ مشيئته وإرادته في الأرض، ويريـد أن يحـق بـه الحـق ويبطـل الباطل...

وذلك يتطلب من الإنسـان أن يسـلك سـبيل ذات الشـوكة. وشتّان بين ما يريده الإنسان لنفسه وبين ما يريده الله تعالى له.

نتائج السير على طريق ذات الشوكة في سورة (الأنفال):

في سورة الأنفال يقرر القرآن نتـائج الحركـة علـى طريـق ذات الشوكة بهذه الصـورة: {**وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ**}.

وبالتحديد يحدد القرآن نتائج هذه الحركة في نقطتين.

١ـ {**يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ**}.

٢ـ {**وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ**}.

إن تثبيت كلمة التوحيد، وتحكيم حدود الله، وتقرير حاكمية الله تعالى، وتنفيذ أمره ونهيه، وتعبيد الإنسان لله تعالى في كل شيء وفي كل شأن هو النقطة الأُولى من هاتين الحقيقتين: {**يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ**}.

وإزالة نفوذ الطاغوت وسلطانه، وقطع دابر الكافرين وإنهاء حاكمية الطاغوت في حياة الإنسان هو النقطة الثانية من هاتين النقطتين.

والنقطة الثانية تحرير إرادة الإنسان من أسر الطاغوت فيملك الإنسان بذلك قرار نفسه، ويملك لنفسه حق الاختيار.

والنقطة الأُولى تعرج بالإنسان إلى الله، وتبوّؤه موضع خلافة الله تعالى في الأرض، وتجعل منه أداة لتنفيذ مشيئة الله، وتسمو به إلى الله تعالى.

ومن دون أن يلقى الإنسان ما يلقاه على طريق ذات الشوكة من عذاب وعناء ومحنة لا يتمكن من أن يتحرر من

أسر الطاغوت ونفوذه وسلطانه، ولا يتمكن من أن يرتفع إلى موقع الخلافة والشهادة.

ولقد كان الله تعالى يعلم أنّ كلمة الحق لا تسود على وجه الأرض وكلمة الباطل لا تسقط إلاّ على طريق ذات الشوكة، ولا تقوم للحق دولة وقوة وهيبة وسيادة إلاّ على هذا الطريق، ولا يتم إِبطال الباطل وزهوقه وسقوطه واستئصاله إلاّ على طريق ذات الشوكة.

على هذا الطريق الشائك فقط يتم تحرير الإنسان من عبودية الطاغوت وعروج الإنسان وصعوده إلى الله تعالى.

لقد كان المسلمون الأوائل رحمهم الله في بدر يطلبون بضاعة الشام المحمّلة في عِير قريش، وكان الله تعالى يريد لهم السيادة على وجه الأرض، وأن يهدم بهم قلاع الكفر في فارس والروم، ويحرّر الإنسان بهم من الطاغوت.

النتائج الأربعة في سورة آل عمران:

وفي سورة آل عمران نقرأ نتائج وعاقبة رحلة المعاناة

والعذاب في حياة العاملين بما يلي:

{وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ}.

وهذه أربعة نتائج:

{وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ} وهذا هو التمحيص الذي سبق أن أشرنا إليه على الخط الأُفقي داخل مساحة الجماعة المسلمة، حيث تؤدي المحنة إلى فرز العناصر الضعيفة وفصلها عن العناصر القوية المؤمنة حقاً.

{وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء} وهذه هي النتيجة الثانية بعد عملية (الفرز)، إنّ هذه المحنة تجعل من المؤمنين قيمين على حركة الإنسان على وجه الأرض وشهداء وأدلاّء، ويجعل منهم قدوات للناس، يقيسون أنفسهم بهم، ويكتشفون بهم نقاط الضعف من أنفسهم، ويقتدون بهم.

{وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ} وهذه النتيجة الثالثة وهي

التمحيص على الخط العمودي في عمق النفس بالمعاناة والعذاب.

ومن دون هذا التمحيص لا يكتشف الإنسان نفسه، ولا يستطيع أن يسدد نقاط الضعف في نفسه، ولا يقوى عوده، ولن يكون قوياً صلباً في مواجهة التحديات.

{وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} وهذه هي رابعة النتائج، فإن محق الكافرين وهلاكهم وسقوطهم، وسقوط الكفر لن يكون بغير العبور من خلال هذه المعاناة الصعبة.

ومن عجب أن معاناة المؤمنين والكافرين في هذه المرحلة من التاريخ واحدة، فإن المؤمنين يعانون كما أن الكافرين يجدون هذه المعاناة أيضاً من دون فرق.

{إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ}.

{إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ

مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ}[١].

لكنّ هذه المعاناة للمؤمنين تمحيص وللكافرين محق. إن المعاناة نفس المعاناة، ولكنها للمؤمنين ولادة جديدة، وللكافرين معاناة النزع والاحتضار.

(١) النساء: ١٠٤.

٥ـ الوسائل التي تمكّننا من الحركة على طريق ذات الشوكة

إنَّ الحركة على طريق ذات الشوكة من أشقّ الأعمال وأكثرها عناءً في حياة الإنسان. ولولا أن الإنسان يشدّ على هذا الطريق حبله بحبل الله، ويعتصم بحبل الله، لما أمكنه من أن يواصل هذه المسيرة الشاقة العسيرة. ويكفي في أمر هذه المسيرة وعنائها وما يصيب المؤمنين فيها من تعب ويأس ومن بأساء وضراء أنْ نقرأ هذه الآيات المباركات من سورة البقرة: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}(١).

وهذه الآيات من سورة الأحزاب:

---

(١) البقرة: ٢١٤.

{...اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا }(١).

وهذه الآيات تشير إلى عمق المعاناة في نفوس المؤمنين، ولا تبلغ المعاناة في نفس الإنسان أعظم من أن يقول الذين مع الرسول متى نصر الله، ولا تبلغ المعاناة في نفوس المؤمنين أعظم من أن تزيغ الأبصار، وتبلغ القلوب الحناجر، ويظن المؤمنون بالله الظنونا.

والذين أصابهم التعب واليأس، وتساقطوا على هذا الطريق، وتراجعوا أو توقفوا عن مواصلة السير أكثر ممن

---

(١) الأحزاب: ٩ ـ ١١.

واصلوا الطريق إلى نهايته، وانتهوا إلى ساحل النجاة.

وإنَّ البدء في هذه الحركة، والدخول في هذه الساحة صعب عسير، وأصعب منه وأعسر أن يواصل الإنسان هذا الطريق إلى نهايته.

فما هي الوسائل التي تمكّن الإنسان من مواصلة العمل والحركة على طريق ذات الشوكة؟

إن القرآن الكريم يلخّص ذلك في كلمتين:

الصبر، والصلاة.

والصبر والصلاة هما الأَداتان المفضلتان في القرآن الكريم لتمكين الإنسان من التحرك على طريق ذات الشوكة، ومواجهة التحدّيات الصعبة التي يواجه بها أئمة الكفر والشرك الدعاة إلى التوحيد في امتداد التاريخ.

يقول تعالى: **{وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ}**(١).

---

(١) البقرة: ٤٥.

{اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[١].

الصبر في علاقة الإنسان بنفسه وساحة العمل.

والصلاة في علاقة الإنسان بالله تعالى.

ولابدّ منهما معاً، لابدّ أن يكون الإنسان قوياً ثابتاً لا يتزلزل ولا ينهار أمام إعصار التحديات في علاقته بنفسه.

ولابدّ من أن يذكر الله تعالى في ساحة المواجهة والصرّاع، ويضع ثقته في الله تعالى، ويسأله النصر والفوز في ساحة المواجهة؛ في علاقته بالله تعالى.

وعي المحنة:

وليس يتأتّى لأحد أن يكون قوّياً ثابتاً في المحنة، لا تزلزله أعاصير الابتلاء إلاّ عندما يكون واعياً للمحنة، فإن أكثر الذين يسقطون في المحنة من الذين لا يعون المحنة.

فإذا كان الإنسان يرى المحنة شراً يراد له، وانه وحده

---

(١) البقرة: ١٥٣.

يواجه هذا الشر، فلابد أن يجزع من هذا الشر الذي لا يطيقه.

وأمّا إذا كان واعياً للمحنة، ويرى أنها ليس من الشر في شيء وإنما ابتلاه الله تعالى والمؤمنين بها لأنه أراد به خيراً، وان الله تعالى بعد ذلك لا يتركهم لوحدهم في وسط المحنة، وإنّما يمد إليهم يده، ويشدّ على قلوبهم، ويقوّي من عزمهم، ويسهّل لهم الصعاب، ويذلل لهم العقبات، فالأمر يختلف تماماً، فلا ينهار الإنسان أمام المحنة، ولا يتزلزل، ولا يتراجع.

وهذا هو الجانب السلبي من الصبر، وهو احد وجهي الصبر.

وأمّا الجانب الايجابي من الصبر، فلابدّ أن يكون الإنسان صبوراً في مواجهة الواقع بأدواته المكافئة له، فلا ينال الإنسان ما يريد بالتمنّيات والشعارات، وإنما ينال ما ينال بإذن الله، بمواجهة الواقع بما يكافئه من الوسائل والأدوات.

ولكي يواجه الإنسان الواقع بما يكافئه، يحتاج إلى تشخيص دقيق لساحة عمله، وعدوّه وإمكانات عدوه، ويحتاج إلى تفكير وتخطيط لمواجهة هذا الواقع، وهذا هو

الوجه الايجابي للصبر وهو إحدى هاتين الأداتين (الصبر والصلاة).

وأمّا الأداة الأُخرى فهي (الصلاة)، في علاقة الإنسان بالله تعالى: فلا يكفي الصبر والثبات والتخطيط والتشخيص في هذه الحركة الصعبة والعسيرة إذا قطع الإنسان حبله عن حبل الله تعالى. فان الإنسان ضعيف في إمكاناته وقدراته وعقله وصبره، لا يستطيع أن يواجه بعض هذا الواقع، فإذا وَصَلَ الإنسان حبله بحبل الله، وشدَّ حوله بحول الله، وقوته بقوة الله، ذلت له الصعاب.

ومن يربط حوله بحول الله، وقوّته بقوّة الله، لا ينفذ حوله وقوته في أي حال من الأحوال، ومهما اشتدت عليه الأزمات، وتكالبت عليه الفتن، فان الله تعالى لابدّ أن يفتح عليه ويرزقه فرجاً ومخرجاً من كل ضيق يلقاه وشدة.

ولقد كان رسول الله 2 يواجه من عتاة قريش في مكة والمدينة ما يضيق به صدره الكبير الذي شرحه الله تعالى... فانزل الله تعالى عليه سورة هود، يأمره الله تعالى فيها

بالاستقامة والصبر أمام تلك الموجات العاتية من التحدي والمشاكسة {**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ**}(١)، ويذكّره الله تعالى بقصص من سبقه من الأنبياء الذين حملوا رسالة الله تعالى، ولقوا ما لقوا من عذاب وعناء، وثبتوا وصبروا، ثم يأمره الله تعالى في نهاية هذا الشوط بالصبر والصلاة: {**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**}(٢).

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) هود: ١١٢.

(٢) هود: ١١٤ ـ ١١٥.

الفهرس